عرفات رجل الأقدار ورمز شعب

عبدالحليم سيف

«منتصب القامة أمشي مرفوع الهامة أمشي.. في كفي قطفة زيتون وعلى كتفي نعشي»..

هكذا عرفنا ياسر عرفات الرئيس الفلسطيني خلال الأربعين السنة المنصرمة بين رصاصة فتح الأولى مروراً بصموده الأسطوري في بيروت.. ثم في مبنى المقاطعة برام الله وحتى لحظة وفاته بعد صراع شجاع ومرير مع الموت خاضه الرجل بإيمان لمدة ١٣يوماً كانت مثيرة مشحونة بالقلق والتوتر.. تضاربت خلالها الأنباء والتكهنات حول مصير عرفات وأسباب مرضه..

أبو عمار يسكن أحلام الفلسطينيين وقلوبهم

اقتحم كل المحن .. ونجا من ١٤ محاولة اغتيال

عرفات وضع القدس في روحه .. وتمسّك بالثوابت الفلسطينية حتى الموت

مشهدان

نعم.. ١٣يوماً كانت ثقيلة وكئيبة عاشها الشعب الفلسطيني داخل الأراضي المحتلة وفي مخيمات الشتات والمنافي ومعهم الأشقاء في اليمن والوطن العربي والعالم ينتظرون بترقب وقلق الخبر الفاجع وهم مشدودون في كل وقت وحين الى شاشة «الفضائيات» لعل أن يظهر مذيع أو مسئول يعلن نبأ تكذيب وفاة أبوعمار، وحدوث أعجوبة تصل الى حد المعجزة كتلك التي عاشها الجميع عندما غاب الرجل عن العالم لمدة ١٥ساعة إثر سقوط طائرته في الصحراء الغربية الكبرى الليبية في السابع من ابريل ١٩٩٢م... وتحولت نجاته بقدرة الخالق عز وجل الى عيد في الأراضي المحتلة حيث عمت الفرحة مدن الضفة الغربية وقطاع غزة وفي مخيمات اللاجئين في لبنان وسوريا... تبادل الفلسطينيون التهنئة.. وأطلقت النساء الزغاريد وزرع شباب بيت المقدس الحلوة في شارع صلاح الدين أكبر شوارع القدس المحتلة..

لكن ذلك المشهد.. وذاك الأمل بدا مستحيلاً هذه المرة فقد استمع الناس الحدث الجلل على لسان الطيب عبدالرحيم- أمين مكتب الرئاسة الفلسطينية وهو ينعي وفاة الرمز القائد ياسر عرفات حبيب الشعب الفلسطيني وأباهم الكبير في الساعة السابعة بالتوقيت المحلي في يوم الثامن والعشرين من رمضان..

وما إن نعى الناعي عرفات حتى انقلبت حياة الشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلة وخارجها الى يوم شديد الحزن.. اتشحت المدن والقرى والناس والسيارات والأحجار والشجر بالسواد ونزلت الدموع دماً من المآقي...

«أي خبر في العيد»

آه ياسر... بل آه ياعيد... أي بشرى وأي خبر حملته لنا معك.. أجئتنا بالحزن والألم والأسى.. آلا يكفينا مانعيشه تحت إرهاب الاحتلال.. يقول شاب فلسطيني، وتلتقط امرأة الحديث وهي تبكي: ما أقساك أيها القدر لقد اخترت من الرجال أشجعهم... وثالث يقول: مات أبوعمار... مات الأب والحبيب.. كيف سيكون حالنا أيها الخالد في ذاكرتنا بعد رحيلك؟!

ثم ماذا بعد؟!

تسمّر الناس من صنعاء الى واشنطن... ومن بكين حتى كيب تاون أمام شاشة التلفزة يتابعون لحظة بلحظة نقل عرفات من المستشفى العسكري في باريس الى القاهرة... في طائرة فرنسية خاصة عكست مشاعر التقدير العربي لفرنسا وشعبها...

ليشيع جثمانه في القاهرة أمس الجمعة تمهيداً لدفنه في رام الله بعد سبعين عاماً ونيف كان فيها الرجل على السمع والبصر... وسيبقى يثير الجدل وهو في قبره لفترة طويلة كونه ارتبط بقضية لايمكن أن تموت وفي لحظات حزينة ليس بإمكان المرء مهما امتلك من الخبرة والمتابعة والمعايشة والمراجع أن يكتب بعجالة عن رجل مثل مرحلة طويلة من الكفاح والنضال الفلسطيني.. وشكل وجوده منعطفاً تاريخياً وحاسماً في مسار شعب وقضية.. نقلها عرفات معاً من لاجئين ليس لهم غير الإحسان الى شعب حي وثورة تظل هي مفتاح السلام والحرب في المنطقة.. لا.. بل وفي العالم..

مسيرة عرفات طويلة مليئة بالمخاطر... والمعارك والحصار والانكسارات والانتصارات..

يسكن قلوب الفلسطينيين

ولما كان الوقت الكافي لايكفي ومساحة التناول لاتسمح بالانتفاضة سأحاول التركيز على بعض المحطات التي من خلالها وعينا حجم قضية كان فيها عرفات يستنهض الحلم والمستقبل ونبدأ من الأخير...

مات إذن بعد ٧٥عاماً واحد من أشهر القادة والرجال في العالم... وإذا كان هو في نظر بعض الاسرائيليين يمثل «الارهاب» وهو بالطبع غير ذلك وبالمقابل فهو «يسكن أحلام الفلسطينيين وقلوبهم» كما يقول عنه الشاعر الكبير محمود درويش..

ووصفه كريم بقردوني زعيم حزب الكتائب الحالي في كتابه «لعنة وطن» بـ«أسبارتاكوس القرن العشرين» فقد انسحب دور أبوعمار الساحر على كل الأدوار وأعاد الى الذاكرة تفاصيل حقائق الجغرافية والتاريخ والهوية الفلسطينية التي كانت قد ضاعت في زحمة الأحداث أو أنها ظلت نائمة في ملفات صانعها «راجع تفاصيل أكثر مجلة فلسطين الثورة العدد ٨٥٥، الصادرة في ١٩٩١/٨/٤م»..

هكذا عرف العالم أبوعمار منذ ظهوره على المسرح السياسي في منتصف ستينيات القرن العشرين بقامته القصيرة ووجهه المبتسم والمتجهم في آن ولحيته القصيرة وزيه العسكري ومسدسه وكوفيته الفلسطينية الشهيرة التي لم تفارقه إلا يوم نقل الى باريس في التاسع والعشرين من اكتوبر الماضي...

ابن القدس

ولد أبوعمار واسمه الحقيقي محمد عبدالرحمن عبدالرؤوف القدوة الحسيني في القدس من عائلة سنية في اغسطس من عام ١٩٢٩م، أمه زهوة أبو السعود توفيت وهو في عامه الرابع... وهو الاسم الذي أطلقه على ابنته الوحيدة «زهوة» ذات الاثني عشر ربيعاً.. من زوجته سهى عرفات التي تزوجها في بحر التسعينيات..

وتقول سيرته المنشورة أن عرفات انتقل من القدس الى القاهرة أثناء الحرب العالمية الثانية.. وعندما بلغ عمره الثامنة عشرة عاد عام ١٩٤٧م الى قطاع غزة ليقاتل في إطار «جيش الجهاد المقدس» ثم توجه الى القاهرة لدراسة الهندسة..

وكأي فلسطيني عاش ياسر عرفات- وهو الاسم الذي اشتهر به- مأساة النكبة والشتات والضياع.. فكفكر طويلاً في الهجرة الى أمريكا... وبعد طول تردد قرر أن يبقى قريباً من وطنه المغتصب لكي يناضل من أجل استرجاع فلسطين...

ويذكر بقردوني في كتابه المشار اليه سابقاً أن عرفات انخرط مع المصريين الذين كانوا يقاومون الاحتلال الانجليزي على طول قناة السويس.. وتعرف على الكثير من الضباط الأحرار الذين أطاحوا بالنظام الملكي في مصر في ٢٣يوليو ١٩٥٢م، وفي تلك الفترة تعرف بالزعيم العربي جمال عبدالناصر.. وفي تلك السنة شهدت القاهرة ميلاد «اتحاد طلبة فلسطين».. اجتمع تحت مظلته الشباب الفلسطيني بمختلف توجهاتهم السياسية من بعثيين وماركسيين وقوميين عرب واخوان مسلمين الى مستقلين.. وبعد انخراطه مقاتلاً في الجيش المصري لمواجهة العدوان الثلاثي على بورسعيد عام ١٩٥٦م، بدأ ياسر عرفات بقيادة حوار فلسطين- فلسطين «وهدفه هو توحيد شعبه وتحويله من لاجئ يحمل بطاقة اعاشة الى ثائر يحمل بندقية».. وأدرك أبوعمار أن تحقيق ذلك بحاجة الى إدارة تنظيمية ثورية.. فعكف نحو ١٥عاماً على تنظيم خلايا فتح السرية في العالم العربي.. وتنقل بأسماء مستعارة بين العواصم العربية... دخل القدس بجواز سفر جزائري.. أوقف في سوريا ولبنان ولم يتم التعرف عليه.. وأطلق سراحه بسبب لهجته المصرية ظناً من المراجع الأمنية أنه أحد رجال المخابرات المصرية «فلسطين الثورة ١٩٩١/٨/٤م»..

لغز فتح

وفي ظل تنامي المد القومي العربي في ستينيات القرن الماضي- بعد انتصار ثورة الجزائر.. واندلاع ثورة الـ٢٦من سبتمبر المجيدة في شمال الوطن اليمني وانفجار ثورة ١٤اكتوبر الخالدة في جنوب الوطن اليمني عام ١٩٦٣م...

ووسط هذا المناخ يعقد في ١٩٦٤/٥/٢٨م المجلس الوطني الفلسطيني الأول في القدس وينتخب المرحوم/أحمد الشقيري- رئيساً للمؤتمر وفي الثاني من يونيو١٩٦٤م أعلن عن تشكيل منظمة التحرير الفلسطينية.. وبعد ستة أشهر من ذلك التاريخ وتحديداً في ٣١ ديسمبر ١٩٦٤م شهدت الساحة العربية ميلاد حركة التحرير الفلسطينية «فتح» أسسها أبوعمار مع رفيق دربه أبوجهاد خليل الوزير في الكويت حيث كان يعمل هناك مهندساً منذ ١٩٥٨م.

وتحول ميلاد حركة فتح الى لغز كبير في الأوساط السياسية العربية.. ففي حين نظر